الجامعة العراقية –
كلية الآداب

تفاضل الفصائل اللغوية في الحدث الكلامي
"مضامين لسانية في الذكورة والأنوثة"

معمر منير العاني

الملخص :

تعد الفصائل اللغوية انعكاسا اجتماعياً معبراً عنه باللغة المتداولة، وقد أقمنا –في هذا المرتجى- على مدارستها على صعيد فصيلة الجنس: تذكيراً وتأنيثاً.

واجتهدنا لهذا السبيل تبيان الفصيلة برصد البواعث الوظيفية للواحق المورفيمة ممثلة بلاحقة التاء، بجهد لا ينأى عن استتباع الرجع التأريخي المتحصل من الخزانة اللغوية.

وبعد طول مُكث بالإفادة اللغوية للبواعث الوظيفية من أصغر وحدتها توافر لنا تصنيف معرفي عمادة الأول مستحق المبالغة، فأبصرنا فيه طيفاً لسانياً سكن في استدعاء التأصيل، وثنى بالحمل على الضد، وثلث بعبرة الاتصال، وانتهى بتداول القصد.

أما العماد الآخر فتمثل بثنائية المدح والذم، فحُزنا منها مقاربة لسانية بدت متزنة النسج بين تواصل الملفوظات بلاحقة التاء في الحدث الكلامي وتصنيف (سيمون دك) لاستعمال اللغة.

مقدمة

إن أخلق ما يُبدأ به الكلام الحمد لله على مِننه، والنشر الجميل لآلائه، وأخلص الصلاة وأدومها على الناصح لأمته، والناهض بما نُدب له محمد، وعلى آله وصحابته.

أما بعد...

إن من صنوف العوارف المتصلة بالفحص اللغوي ما استقر عند الدارسين من وسم لفظي عماده: الفصائل النحوية، أو التقسيمات النحوية، أو الأقسام الجراماتيكية، وهي –على أي حال- تفضي إلى معان نحوية في لغة ما، وأدناها: الجنس، والنوع، والعدد، والشخص، وزمن الفعل وهيئته.

ويمثل هذا المسعى محاولة لصياغة منظمة –فيما نرجو- لمستحق التفريق بين فصيلة الجنس: المذكر والمؤنث في العملية الاتصالية، متخذاً عُدة اللواحق المورفيمية في النظام اللغوي.

وليس بضائر أن نحتفي بتحقيق موائمة للمفاهيم اللسانية بين تأصيل القدماء بما استقر في مدوناتهم وبين المرجو من استئناف المحدثين ممن تسنم أسنمة البحث اللغوي.

ويتبدى للخاطر الأول أن شاكلة تصنيف الألفاظ بحسب جنسها تتنوع باختلاف اللغات شكلاً ووظيفة، ويستمر الحال بأعيننا إلى أنها تجري على قياس مطرد، فقد نلحظ انرياحاً عن منطق الواقع في إطلاق التذكير والتأنيث؛ مما أثار في النفس استحساناً لتحري قضايا في هذا السبيل.

وبقطع النظر عن تفضيلات أخر، فإننا نؤمن بأن هذه الآفاق تستأهل التحليل والنقاش لاسيما إذا بدأت مما انتهى إليه السالفون، فإذا بالتبيان المؤلف لتجليات الأنساق الأسلوبية المتصلة بمرجعية الإنجاز قد نتج عن إدراك الغاية من لاحقة التاء المورفيمية، بما صدر عنها من موجهات سيمائية وبواعث وظيفية.

ومما استرفده البحث لذلك: مستحق المبالغة، بإستدعاء التأصيل، ومسلك الحمل على الضد، ومقام الاستعمال، وتداولية القصد، وثنائية المدح والذم، باستجماع أقصاب لتضيق (سيمون دك) تمثلت بالملكة اللغوية، والمنطقية، والمعرفية، والإدراكية، والاجتماعية.

مع عدم الإغفال عن استفتاح قوابل الحديث بإجمال للتنظير المعرفي للمنظومة اللغوية في أمر الفصائل، وانتهاء المسعى بمغتنم ثوى في آخر الفكرة.

وبعد... حسبنا أن تكون هذه المدونة لدى الحقيقة ذخرها، وفي البيان ركنها، وعند الله أجرها.

مفاهيم المفاضلة:

إنْ نحن أدمنا النظر في درس الفصائل، ولازمنا ترجمة مسعى بلومفيلد وجدناها أقرب زلفةً إلى تقسيمها بحسب ظهورها وأشكالها، فانشعبت إلى قسمين[1]:

١. الفصائل الظاهرة (Overt categorio)، مثل: طالب، وطالبة، ورجل، ورجال... وإلخ.
٢. الفصائل الخفية (Covert categories) مثل:
أ. الجنس المشترك، نحو: نملة، وجريح للمذكر وللمؤنث.
ب. الفعل المشترك بين المتعدي واللازم، مثل: نقص.
ت. الاسم المتمكن من الصرف، مثل: تميم، إذا أريد بها اسم القرية أو الأجداد، وعلم ممنوع من الصرف إذا أريد بها اسم القبيلة.
ث. بين اسم الفاعل واسم المفعول، مثل: مختار.
ج. بين المفرد والجمع، مثل: فُلْك.

وليس بضائر أن تُمدَّ الفصائل الخفية برافد إيحاء الصيغة المشتركة في إسناد الفعل بين الغيبة أو الحضور، مثل "تكبران، إذ أنها تدخل في قولك: هند وزينب تكبران سريعاً، وقولك: أنتما -يا محمد وموسى- تكبران سريعاً، وقولك: أنتما –يا هند وزينب- تكبران سريعاً، فصيغة (تكبران) تشترك في الفعل المضارع بين الغائب والمخاطب[2].

[1] **هناك مجموعة من المسلمات لعلم اللغة، قراءات في علم اللغة، بلومفيلد ليونارد، أعيد طبعه في مارتن جوس، شيكاغو ولندن، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٨.**

A set of postulates for the science of language "In Readings of linguistics, Bloom field L./ed by martin joos, chicago and London, the University of chicago, press. 1968. P(29).

[2] **الفصائل النحوية في اللغة العربية، أطروحة دكتوراه، إعداد إن سوب لي (In Seap- Lee) إشراف الدكتور نهاد الموسى، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨، (١٤).**

ويتوارى وراء تكلم التقسيمات تفصيلات عدة تترامى فيها أطراف الحديث لا مُقام لها في بساط بحثنا، لذا سنضرب عنها الذكر صفحاً، مؤثرين شطر الجنس منها، محتفين بسير أغوار وضع الاسم من حيث التذكير أو التأنيث، أو الجمع بينها، مؤمنين بأن بواكير الحياة الأولى ندية بالإنباء عن وقع الجنس في التجارب اليومية للإنسان، بالحرص على التفريق بين الذكورة والأنوثة لكل ذي كبد.

وفي اللغة انعكاس مجتمعي شامل- مضرب اكتمال التفريق –آنف الذكر-، يتجلى في كل لغات العالم، بالرغم من الاختلاف بينها في النظرة إلى تنويع كثير من المسميات تحت نوع المذكر والمؤنث، أو الخروج عنها، ويظهر ذلك في اللغات السامية، وغيرها من اللغات"[١].

يجنح الفائت إلى استظهار الوقائع الكلامية المصورة لرجع تأريخي من غير قتور، ثم يسجل (رايت) حضوره في سمت الساميين، ولا ينسلخ عن عاداتهم بقوله: إن الخيال الحي للسامين كان يرى أن جميع الأشياء، حتى تلك التي يبدو واضحاً أن لا حياة فيها، مفعمة بالحياة والشخصية، وعليه فهناك جنسان فقط، حيث أن في الطبيعة جنسين أيضا[٢].

(Wright says that the imagination for the semities is seen about all things even those that seem clear, that no life in vibrant and personal so, there are only two sexes even in the nature.)

ثم نمضي لطيتنا متخذين خطوات أخرى في منطق السامين من فصيلة الجنس، فيذكر لويس، هـ.جراي أنه يوجد نوعان فقط من الجنس على امتداد الحقبة الزمنية للغات السامية"[٣] (Louis. H. Gray mentioned that there are two types of sexalang period of time for semitic longuages)

قاطعاً الحجة، ومبرزاً الرأي بنوعي التذكير والتأنيث، وحين استقام اختزال مفاصل الزمن، واعتصار محامل التأريخ حَبانا بطور ثالث للجنس في اللغات السامية لم يحدث ما يقابلها في اللغات الهند وأوربية، هذه المرحلة هي أن مجموعتي الأسماء الدالة على الذكور والإناث اقتسمت فيها بينها الأسماء الدالة على كائنات غير حية واستوعبتها، وبذلك أصبح لدينا نوعان من الأسماء فقط: مذكر، ومؤنث[٤].

وبعد أن آنَسْنا رُشداً بالمتقدم نرى أنه ليس من فضول القول عند ذوي العلم والرجحان في الدراسات السامية أن نستدل منهم على أن الساميين كانوا يفرقون بين المذكر والمؤنث في اللغة يجعل كلمة للمذكر وكلمة للمؤنث، واستدرك العرب على هذه الطريقة؛ لأنهم خافوا أن تكثر عليهم الألفاظ، "ويطول عليهم الأمر فاختصروا بأن أتوا بعلامة تفرق بين المذكر والمؤنث، ثم إنهم ربما جمعوا بين التفريق باللفظ والعلامة، نحو: كبش، ونعجة، وجمل وناقة، وبلد ومدينة"[٥].

ولاشيّة في القول إن "العربية تمهر في التوسعة على ذاتها بطرائق جديدة، فكلمة ثعلب، أو عقرب، وما شاكلها تدل على الجنس مذكراً ومؤنثاً على حد سواء، ولما استدعت الحاجة إلى إظهار الذكورة دون الإناث جيء بالألف والنون على نحو ما حصل حين استدعت الحاجة إظهار الإناث فجيء بعلامات التأنيث"[٦].

وكرّت بنا الذكرى في خطب اللواحق الخاصة بالمؤنث النحوي إلى تصور حالة من حالات اللغة ضاربة في القدم، حيث كانت هذه اللواحق تصدق على طبقات، ويبدو أنها قد التقت في طبقة يمكن تمييزها: طبقة أقل القيمة، أو الأدنى، وهي التي يمكن أن تفسر فصائل الكلمات المختلفة التي قد تضمنها: كالتصغير، والتحقير، واسم الجماعة، وكلمات المعاني المجردة"[٧].

وباستتباع لا ينأى عن الرجع التأريخي أنبه برجستراسر في ومضة شارحة لِكُنه اللواحق إلى أن "تأريخ لواحق التأنيث على حدتها، فالتاء مع الفتحة قبلها، أي (at) سامية الأصل، ويدل على قدمها وجودها في ماضي الفعل

[١] التأنيث في اللغة العربية، إبراهيم إبراهيم بركات، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٩٨٨، (٢٠).
[٢] ينظر: النحو في اللغة العربية، رايت، ط٣، جامعة كامبرج، ١٨٩٦، (١٣١).
A Grammar of the Arabic language. W.wright, 3ed, cambridge University, press 1896, (131).
[٣] مقدمة عن مقارنة اللسانيات، لويس جراي، لندن، (٤٨)
An introduction to semitic comparative linguistc, by louis. H. Cray. P.(48)
[٤] التأنيث في اللغة العربية، ٣٢.
[٥] الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٥، ٣٢/١.
[٦] ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية، دراسة لغوية تأصيلية، إسماعيل عمايره، ط١، مركز الكتاب، عمان، ١٩٨٦، (٣١).
[٧] العربية الفحصى دراسة في البناء اللغوي، هنري فليش، ترجمة عبدالصبور شاهين، ط١، دار الشباب، مصر، ١٩٩٧، (٧٠).

نحو (فَعَلتْ)، وكثيراً ما كانت الفتحة تحذف في اللغة السامية الأم، ولم يبقَ من ذلك في العربية إلاَّ القليل، نحو: بنت، وثنتان مؤنث (tinani) وكلتا مؤنث كلا"[١].

ولاتمام العائدة وتوكيد عارفة بعارفة استئنأف اللغويون حصر علامات التأنيث، فأذنوا بالتاء أو الهاء على خلاف في توجيهها، والألف –مقصورة وممدودة- والكسرة، والنون، والألف الملحقة بهاء الفائبة (الحركة الطويلة بالفتحة)، مع عدم الإغفال عن بعض الإضافات الصوتية في بعض لهجات العربية لتمتاز بها حركة التأنيث.

المتحصل من الخزانة اللغوية في لاحقة التاء –أوثق عرى بمقامنا- والمستصفى من جدلها اللغوي يرمي إلى أنها "إلحاق صوتي إلى الكلمة لتدل على تأنيثها، وقد فصل بواسطتها بين تأنيث الاسم المفرد وتذكيره، حيث يكون بوجودها مؤنثاً، وباطراحها يكون مذكراً، نحو قائم وقائمة"[٢]، وتاء التأنيث دائماً بحركة إلا في حالة الوقف، وحركتها هي العلامة الإعرابية للاسم الذي لحقت به[٣].

المفاضلة الأولى/ بواعث وظيفية في مقولة المبالغة:

بعد طول مُكث بالإفادة اللغوية للبواعث الوظيفية من أصغر وحدتها توافر لنا التصنيف المعرفي القادم من مستحق المبالغة فإذا سرّحنا النظر مستحضرين مواقف اللغويين وجدنا – هذا المستحق- عين اليقين في مظانهم، قال المبرد: "دخلت أي الهاء في راوية، وعلاّمة للمبالغة"[٤]، واتخذ آخرون بين ذلك سبيلاً، فأقروا مناً للمتلقي بإتيان الهاء لاحقة بالإسم لمرجوّ المبالغة، ومن مأمول الإمارات: "فروقة، لشديد الخوف، وفي المثل: ربّ عجلة تهب ريثا، وربّ فروقة يدعى ليثاً، وكذلك ملمومة وهو الكثير الملل"[٥].

يسعفنا مضرب الأمثال الفائت بأن نحدق في سدفة الزمان لنرقب محمود آثار اللغويين، ونبصر طيفاً من الاستشراق في باعث مفاضلة المعنى للتذكير على اللفظ الموضوع للتأنيث، وذلك باجتهاد آتٍ:

- استدعاء التأصيل، فهي مسوغ استعمال اللاحقة، قال برجستراسر في التاء: "لا تدل على الأنوثة في الأصل البتة، وذلك أنا نجد اللغة لم تستخدم التاء لتمييز الذكر والأنثى في الزمان القديم، بل فرقت بينها بمادة الاسم نفسها نحو: الرجل والمرأة والحمار والأتان، وغير ذلك، واستغنت عن التاء في الصفات الخاصة بالإناث لمعناها نحو حامل"[٦]. فلا تثريب في تنوع استعمال اللاحقة للدلالة على المبالغة في السجايا والأعمال.
- مسلك الحمل على الضد؛ نلفي فيه حكمة بالغة باتساق العلة بالحكم فيما التبس من مساعي تصديق الكلام، فما سمع من قولهم امرأة ملومة، فإنما التاء فيها للمبالغة لا للتفرقة من المذكر والمؤنث، فهم يقولون، كذلك: رجل ملومة، أما قولهم امرأة عدوة فهو شاذ وربما كان محمولاً على صديقة كما في عكسه، وهو حمل صديق على عدوة في قوله: لم أبخل وأنت صديق، والقياس صديقة، وهم يحملون الضد على ضده كما يحلون على نظيره"[٧].
- عبرة مقام الاستعمال لا وضع اللفظ، وأقرب ملتمساً لتكلم الفلسفة تعليلهم بأنهم "أنثوا المذكر؛ لأنهم أرادوا أنه غاية في ذلك الوصف والغاية مؤنثة"[٨].

ولإثراء عائدة العبرة يقرب بالصواب التنقيب عن المنطق العقلي "بين الأسماء المؤنثة وما يمكن أن تتضمنه من تأنيث حقيقي دال على الجنسية الأنثوية وجدنا بينها قدراً من الأسماء لا نراها في حقيقتها تمت للجنس بصلة عقلية واضحة، وإنما جرت اللغات لأمر ما على معاملتها تلك المعاملة"[٩].

- تداولية القصد: لا مناص من تعقب الاستعمال اللغوي لفصلية الجنس؛ لنستل منه مفاصل مؤكدة للوقائع الإبلاغية ضمن المجتمع البشري، جاء في الخصائص: "أن الهاء في نحو علامة ونسابة، لم تلحق

[١] التطور النحوي، ٥١.
[٢] التأنيث في اللغة العربية، ٦١.
[٣] لمزيد نظر واستزادة ينظر: الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣، (٣٧/٢)، شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبدالله الأزهري، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ٢٨٥/٢.
[٤] المقتضب، المبرد، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، ط١، القاهرة، ١٩٦٨، (٢٦٢/٤).
[٥] شرح المفصل، ابن يعيش، تحقيق: إيميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠٠١، ٩١/٢.
[٦] التطور النحوي، ٧٤.
[٧] شرح التصريح: ٢٨٧/٢.
[٨] شرح التصريح: ٢٨٨/٢.
[٩] من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٥: ١٥٩.

لتأنيث الموصوف بما هي فيه، وإنما لحقت لإعلام السامع أن الموصوف بما هي فيه قد بلغ الغاية والنهاية، فجعل تأنيث الصفة أمارة لما أريد من تأنيث الغاية والمبالغة، وسواء كان ذلك الموصوف بتلك الصفة مذكراً أو مؤنثاً"[١].

ولا تنقطع المعرفة بعد السالف عن استشعارٍ بأن الظواهر الإنسانية لا يمكن النظر إليها إلا من خلال رغبة الكائن في التواصل مع الآخر، ومن ثم فمجموع ما ينتجه الإنسان عبر لغته وإبداعه وطقوسه يندرج ضمن سيرورة تواصلية لدرجة تجعل الثقافة في كليتها سيرورة تواصلية[٢].

المفاضلة الثانية/ موجهات سيميائية لثنائية المدح والذم:

قد خلت من قبل سُنن تبنئ بتداول الثنائية في المجتمع، والتوجيه النبوي أحق ما يتوسل به إلى غايتنا، قال عليه الصلاة والسلام: "لا تكونوا إمَّعةً، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"[٣].

هذا الهَدي النبوي فتح نافذة إلى الوجهة اللغوية في مرتبة لشكل وفيض الدلالة، جاء في اللسان: "الإمّعة والإمّع بكسر الهمزة وتشديد الميم: الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء"[٤].

ويكمل برجستراسر وصل الشكل والإيحاء بأرجى تذكار فانتهى إلى أننا "نجد التأنيث للذم نحو إمّعة، أي: الرجل يتابع كل أحد على رأيه، وللمدح نحو: علاّمة"[٥].

إنْ أسلمنا للمتقدم من آثار الدارسين فقد اهتدينا إلى تحقيق الكفاءة التبليغية بمفاضلة الجنس، آخذين بالحسبان قول (Benveniste) (بنفنيست).

"the process employs a verbal be where the tongue by doing use. Tongue before use does not represent the only possibility for the San"[6]

أي: "إن العملية اللفظية تكون حيث يوظف اللسان بواسطة فعل الاستعمال واللسان قبل الاستعمال لا يمثل إلا إمكانية للسان".

ومن ثمَّ فالاهتمام معقود بتقنية إتمام الحدث الكلامي، والسياق المقامي الذي يتحقق فيه؛ لذا فالباحث يرى تواصل الملفوظات يلاحقه التاء ونظائرها للمدح والذم متزنة النسج، ومتوافقة الطوّية مع تصنيف (سيمون ديك)[٧] لاستعمال اللغة، وباستجماع أقطاب خمسة ننهض بذمام العارفة:

- الملكة اللغوية: باستعمال لغة ذات بنى بسيطة أو معقدة في مقامات تواصلية مختلفة، قال صاحب التهذيب: "وإنما زادوا فيه الهاء؛ لأن العرب تدخل الهاء في المذكر على جهتين: إحداهما المدح، والأخرى الذم، إذا بولغ في الوصف"[٨]. ويلوح للمتوسم ما جاءت به قريحة النميري[٩]:

ولن يستهيمَ الخُرَّدَ البيض كالدُّمى

هِدانٌ ولا هلباجة الليل معَرف

وهنا يَلْحَب الجيل أمام دارسي المعنى بوقع من بعيد التبصر ولطيف التأمل في تعيين معنى الهلباجة بـ: الأحمق الذي لا أحمق منه، وقيل: هو الوضم الأحمق المائق القليل النفع الاكول الشروب، وزاد الأزهري: الثقيل من الناس[١٠].

- الملكة المنطقية: باشتقاق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلالية تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي، وتغدو هذه الملكة موصولة بمنطق يتوخى ألفاظ العرب، ويستنهج حذوهم، وقد بوأنا به ابن جني

[١] الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ١١٤/٣.
[٢] ينظر: التلقي والسياقات الثقافية، عبدالله إبراهيم، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٠: ٤٧.
[٣] سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، باب ما جاء في الإحسان والعفو: ٤٣٢/٢.
[٤] لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، مادة/أمع.
[٥] التطور النحوي: ١١٤.
[٦] Problemes de linguistigue generale, Benveniste, Tome II, Ed Gallimard, 1979. P.8.
[٧] لتكامل المعرفة بالتضيف ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي)، أحمد المتوكل، ط١، دار الأمان، الرباط، ١٩٩٥: ٤٩.
[٨] تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١، مادة/عزب.
[٩] ديوان جران العود النميري، رواية أبي سعيد السكري، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣١: ٣٤.
[١٠] ينظر: اللسان، مادة هلبج.

بمقوله أن "تذكير المؤنث واسع جداً، في حين أن تأنيث المذكر أمر مستغرب ومستنكر، والسبب في ذلك أن تذكير المؤنث رد فرع إلى أصل في حين هو في الثاني حمل أصل على فرع"[١].

فلا ممسك لعدم مجيء التاء في بعض الكلمات مورفيم تأنيث، فتقع للمهن، مثل: رواية، وخليفة، ونساية، أو للمبالغة، أو لتأكيد المبالغة، مثل: طاغية – هلباجة (الأحمق)، وفقاقة (الأحمق كثير الكلام)، وقد تأتي لوظيفة التأنيث، مثل: نعجة، وناقة"[٢]. ويتكلم السلائق العربية يبين منظور الحياد والتحيز للتذكير باستعمال الشكل الأنثوي لخليقة ممدوحة، أو مذمومة، ذلك "أن معظم اللغات التي تفرق بين المذكر والمؤنث بلاحقة إضافية تتخذ من صيغة المذكر أصلاً ومن صيغة المؤنث فرعاً، ويندر العكس"[٣].

- الملكة المعرفية: باستدعاء معارف مختزنة عند الحاجة لاستعمالها في تأويل الخطاب، فلا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضى به ابن التستري بعدم وجوب الاشتغال بطلب علامة تميّز المؤنث من المذكر، إذ كانا غير منقاسين، وإنما يعمل فيهما على الراوية، ويرجع فيما يجريان عليه إلى الحكاية"[٤].

فإذا اعتصمنا بالسالف من التوجيه أمكننا أن نصدح بتقرير أمثلة لأحوال الأستعمال، مستمدين شرعيتها من العكوف على ضروب التعبير المكونة لمعارف منتظمة بين الناس، ويحضرنا قول أبي بكر الأنباري: "والباقعة عند العرب: الطائر الحذر المحتار الذي يشرب الماء من البقاع"[٥]. ولا نزال نطلع في بعض اللهجات المعاصرة المحكية على صور لفظية مماثلة، ومنها قول المصريون في الذم: (إيحه) يريدون شديد الحرص، و(بُضَلَه) أي: الكسول، أو ضعيف العقل[٦].

- الملكة الإداراكية: باشتقاق معارف أدركها من المحيط، واستعمالها في انتاج الخطاب وتأويله، فلا تشكل مقولة إن "مما يزيد الأمر تعقيداً أن علامات المؤنث الثلاث، وهي الألف المقصورة، والألف الممدودة، والتاء المربوطة، أو هاء التأنيث قد نجدها في المذكر"[٧]، عائقا أمام إدراك الأبعاد السيميائية للملفوظات بلواحقها، إذ برئت من عوارض العلل، والتباس التعقيد.

وقد ألمع ابن التستري إلى أن العربية ألحقت "علامات المؤنث بالمذكر منها الهاء نحو قولك رجل يافعة وربعة وصرورة للذي لم يصبح، ونزوقة للجبان، أما الألف المدودة، مثل: بَرَاكاء للشديد القتال، ورجل ذو بزلاء إذا كان جيد الرأي، أما بالألف المقصورة نحو: رجل خُنثى، وزِبَعْرَى للسيء الخلق"[٨].

- الملكة الاجتماعية: بمعرفة عناصر الخطاب النفسية، وإدراك متى؟ ومن؟ ولماذا؟ يخاطب المتلقي.

وبقطع النظر عن مدى استقامة هذا الحكم أو شططه، فهو ضرب من الخواطر نحاول أن نجلو به ما كشفه الواقع اللغوي في استعمال لم "يقف عند تصنيف الألفاظ إلى المذكر والمؤنث بل عمد الفصحاء إلى إحلال أحدهما محل الآخر في مناسبات الكلام، والذي سوغ لهم ذلك هو مراعاة مضمون اللفظ لا ظاهرة ويحملونه على معناه، وحمل الأشياء على المذكر والمؤنث منوط بتصورات الأمم والشعوب لهذه الأشياء، فيما قربت من نظرهم من الأنثى الحقيقية أنثوة، وما قربت من المذكر ذكوره".

ولمكاشفة المتخيل الذهني للمبتغي نستأنف عدول لفظة الجنس عبر نمطية العلاقات الاجتماعية في الأمثال، ودوننا قولهم: أعجز من هلباجة، وهو الذي لا يرعوي لعذل العاذل، ولا يُصغى إلى وعظ الواعظ، ينظر بعين حسود، ويُعرض إعرا حقود، إن سأل أكف، وإن يُسئل سوّف، وإن حدّث حلف، وإن وعد أخلف... لا يصدر عنه الآمال إلا بخيبة ولا يضطر إليه حر إلا بمحنة[٩].

صفوة القول:

لاحت في هذه الإطلالة لوائح مسفرة ندوّنها –بأشد اجتهاد- بالآتي:

[١] **الخصائص: ٤١٥/٢.**
[٢] **تدميث التنكير في التأنيث والتذكير، إبراهيم عمر الجعبري، شرحها محمد عامر أحمد حسن، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٩١: ٣٩.**
[٣] **اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٦: ٥٩.**
[٤] **المذكر والمؤنث، سعيد بن إبراهيم البغدادي التستري، تحقيق أحمد عبدالمجيد هريدي، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ١٩٨٣: ٥٩.**
[٥] **الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ط٣، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٤م، ١٠٦/٢.**
[٦] **لاستيفاء حظ الأمثلة ينظر: المحكم في أصول الكلمات العامية، أحمد عيسى بك، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة: ٣٤/٢٠.**
[٧] **المعجم المفصل في المذكر والمؤنث، إميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤: ١٦.**
[٨] **المذكر والمؤنث: ٤٨-٤٩.**
[٩] **ينظر: جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، دار الفكر، بيروت، ٤٢/٢.**

- انتظم عقد الفصائل النحوية بنوعين: أحدهما الظاهرة على صعيد الجنس، والآخر: المخفية متمثلة بالاسم على مضمار الجنس المشترك بين التذكر والتأنيث، بالفعل على ساحة لزومه وتعديته، وبالمشتق على نمط صَيغته وكمه: إفراداً وجمعاً.
- حرصت البواكير الأولى للحياة على الميز بين المذكر والمؤنث؛ كونها انعكاساً اجتماعياً معبراً عنه باللغة المتداولة، فاسوعبوا الحي وغير الحي.
- رسخ في خلد الدارسين أهمية الظاهرة في ظل الغموض الساير لموضوعها، وعدم جريانها على القياس المطرد، ففرقوا بين الثنائية بلوازم لفظية، وأخرى سياقية، ونهدوا لتعليل ما اعتاص منها.
- توافرت بواعث وظيفية للاحقة الفاء المورفيمية تمثلت في مستحق المبالغة بما حملته من وعي استدعاء التأصيل باستعمالها في السجايا والأعمال، وحكمة الحمل على الضد في وقع التفريق، مروراً إلى عبرة الاستعمال في غاية الوصف، وانتهاءً بتداولية القصد، فأثرى تعقب الوقائع الإبلاغية ضمن المجتمع البشري في استشعار الغاية من اللاحقة كما في (علاّمة، ونسّاية).
- تجلت موجهات سيميائية في ثنائية المدح والذم، وباستجماع تحليلي للحدث الكلامي، والسياق المقامي وجدناها متزنة النسج مع تصنيف (سيمون دك) لاستعمال اللغة، كوصفهم المرء (هلباجة)، وما جرى عليها من ملكات: لغوية، ومنطقية، ومعرفية، وإدراكية، وإجتماعية.